كلية: الآداب

القسم او الفرع: التاريخ

المرحلة: الثالثة

أستاذ المادة: أ.م.د. أبو الهيجاء محمد رافع حمدان العاني

اسم المادة باللغة العربية: فلسفة التاريخ

اسم المادة باللغة الإنكليزية: Philosophy of History

اسم المحاضرة الحادية عشرة باللغة العربية: ابن خلدون ونظرية التعاقب الدوري للحضارات

اسم المحاضرة الحادية عشرة باللغة الانكليزية:

Ibn Khaldun and the Theory of the Cyclical Succession of Civilizations

محتوى المحاضرة الحادية عشرة

أحوال التاريخ قبل وبعد "ابن خلدون":

لقد كان التاريخ قبل "المقدمة" – وهو عنوان المؤلف الذي وضعه "ابن خلدون"، ويعد الأبرز ضمن ما قد تمت كتابته في فلسفة التاريخ، والمقدمة هو جزء من الكتاب الذي ألفه "ابن خلدون" والمسمى "كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أخبار العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر" – لوناً من ألوان الأدب ونوعاً من المسامرة وسرد الحوادث يتوخى إمتاع النفوس ومؤانستها وإثارة كوامنها بذكر التهويلات والأعاجيب والأوهام. ولقد كان الأقدمون ينظرون إلى التاريخ نظرتهم إلى ديوان أخبار وجعبة حوادث، ولم يعدونه علماً من العلوم له أصوله وأسسه ومناهجه.

ولا ينكر أحد أن التاريخ على يد "ابن خلدون" قد أضحى علماً متكاملاً بأسسه ومناهجه. فقد كتبه على أسس علمية منهجية تعتمد على الشرح والتحليل فدرس أحداثه وظواهره، يجرد منها قوانين عامة ونواميس مطردة، وهكذا يمكن القول بأنه صاحب نظرية في التاريخ لا مثيل لها، حتى ظهر من بعده بعدة قرون فلاسفة ومفكرون يمكن القول بأنهم جميعاً عالة على فكره، إذ أن "ابن خلدون" ينفرد بالمنهج، أما سرد الوقائع والحوادث فهو أمر يلتقي فيه أغلب المؤرخين. ولقد أصبح التاريخ بفضل "ابن خلدون" علما منهجياً راسخاً، ولم يعد سرداً للحوادث بل تعليلاً لها. وها هو يبين حقيقة التاريخ أحسن بيان ويعرفه تعريفاً صحيحاً حين يقسم التاريخ إلى ظاهر وباطن فيقول: (إن التاريخ في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول والسوابق من القرون، تنمو فيها الأقوال وتضرب فيها الأمثال، وتطرف بها الأندية إذا غصها الاحتفال . ولكنه في باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة وعريق، وجدير بأن يعد من علومها وخليق.).

الأسباب التي تبعد التاريخ عن الصدق وتباعد بين المؤرخ وبين الموضوعية:

لقد أدرك "ابن خلدون" أن الكذب متطرق بطبيعته إلى الخبر فاستقصى الأسباب المقتضية له وحصرها فيما يأتي:

١- التشيع للآراء والمذاهب، فإن النفس إذا خامرها تشيع لرأي أو نحلة قبلت ما يوافقها من الأخبار، وكان ذلك الميل والتشيع غطاء على عين بصيرتها عن الانتقاد والتمحيص فتقع في قبول الكذب ونقله.

٢- الثقة بالناقلين، وتمحيص ذلك يرجع إلى التعديل والتجريح. وطريقة التجريح والتعديل هذه طريقة ابتدعها رواة السنة النبوية الشريفة ومؤداها البحث الدقيق الذي يجب إجراؤه للتحقق من أمانة المحدِّث وصدقه.

٣- الذهول عن المقاصد، فكثير من الناقلين لا يعرف القصد بما عاين أو سمع، وينقل الخبر على ما في ظنه وتخمينه فيقع في الكذب.

٤- تقرب الناس في الأكثر لأصحاب التجلة والمراتب بالثناء والمدح وتحسين الأحوال وإشاعة الذكر بذلك فيستفيض الأخبار بها على غير حقيقة.

أطوار الحضارة عند "ابن خلدون":

يحدد "ابن خلدون" أعمار الحضارات على أساس التشابه بين الحضارة وبين الكائن الحي، فكما يمر الكائن الحي بطور الولادة ثم ينمو ويكبر ويشتد عوده ثم يهرم ويشيخ حتى يموت تمر الحضارات بذات الأطوار. وللدولة عمر مثلها مثل الكائن الحي تماماً، وقد حدد عمر الدولة بمائة وعشرين سنة وهي تتكون من ثلاثة أجيال، وهو في ذلك يرى أن الدولة في الغالب لا تعدو أعمار ثلاثة أجيال، والجيل هو عمر شخص واحد من العمر المتوسط فيكون أربعين الذي هو انتهاء النمو والنشوء.

يحدد "ابن خلدون" الأطوار التي تمر بها الدول في ثلاثة أطوار متعاقبة أو دورية تبدأ بالبداوة ثم يكون التحضر، ثم طور التدهور.

أولاً: طور البداوة:

يطلق "ابن خلدون" مصطلح طور البداوة في حياة الأمم والشعوب والدول على البدو الذين يعيشون في قبائل بالصحراء والبربر الذين يسكنون الجبال في جماعات عشائرية وأسرية، والتتار الذين يسكنون السهول في عصبيات قوية، وهؤلاء جميعا لا يخضعون لقوانين متحضرة، ولا تحكمهم سوى حاجاتهم وعاداتهم، وهم يعيشون مرحلة من الحياة البشرية تسبق مرحلة التحضر.

وتحكم أفراد البدو رابطة العصبية حيث نصرة ذوي الأرحام والأقارب، وما يلزم عنها من تعاضد وتناصر، وكلما كانت القرابة بين الأفراد البدو أكثر أصالة وأشد نقاوة كانت العصبية فيهم أقوى وبالتالي كانت الرياسة فيهم على سائر البطون والقبائل التي تختلط فيها الأنساب.

وتحتفظ القبيلة بالسلطة ما احتفظت بعصبيتها، ويدعم العصبية عاملان:

- احترام القبيلة لشيخها.
- حاجتها المستمرة للدفاع والهجوم.

ويتميز البدو بأنهم لا يزالون على خلق البداوة وخشونتها وتوحشها من شظف العيش والبسالة والافتراس والاشتراك في المجد، فلا تزال بذلك سورة العصبية محفوظة فيهم، فحدهم مرهف وجانبهم مرهوب، والناس لهم مغلوبون. وهم أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر، والسبب في ذلك أن أهل الحضر ألقوا جنوبهم على مهاد الراحة والدعة وانغمسوا في النعيم والترف. ويشير "ابن خلدون" إلى أن حياة التقشف تسبغ على البدو أخلاقاً فاضلة كالدفاع عن النفس والنجدة والشهامة والغيرة على الاستقلال.

ثانيا: طور التحضر:

ينتقل المجتمع من طور البداوة إلى طور التحضر إذا تحقق أحد الاحتمالات التالية:

أ- إما أن تتغلب العصبية الصاعدة بعصبيتها على دولة مجاورة في طور التدهور، مما يجعلها فريسة سهلة وطعما لتلك العصبية الصاعدة، الأمر الذي يؤدي إلى حدوث احتكاك حضاري بمعالم تلك الدولة مما يساعد على الانتقال إلى طور التحضر.

ب- مجاورة القبيلة الصاعدة بعصبيتها لدولة قوية ومتحضرة. حيث تستظهر الدولة بأبناء القبيلة على أعداءها وتدافع عن نفسها بهم، مقابل أن مشاركة القبيلة للدولة بالنعم والخصب حتى تذهب عنهم خشونة البداوة وتظهر عليهم صفة التحضر.

ويلعب الدين دورا كبيرا في عملية انتقال القبيلة من طور البداوة إلى طور الحضارة، إذ إن الإيمان بالدين يدفع الناس إلى البذل من أجل تحقيق غايتهم، فضلاً عن أنه يذهب التنافس ويزيل الاختلاف، ويذهب انصراف الناس إلى أهواء الباطل، فيحصل التماسك ويقل الخلاف ويحصل التعاون والتعاضد، وذلك لأن القلوب إذا تداعت إلى أهواء الباطل والميل على الدنيا حصل التنافس وفشا الخلاف، وإذا انصرفت إلى الحق ورفضت الدنيا والباطل وأقبلت على الله اتحدت وجهتها، فذهب التنافس وقل الخلاف وحسن التعاون والتعاضد واتسع نطاق الكلمة لذلك، فعظمت الدولة.

كما تلعب الحاجة الاقتصادية دورا مهما في حصول الانتقال، فمثلما كانت الحاجة الاقتصادية تدفع القبيلة إلى الدفاع عن نفسها أولاً، ثم الغزو ثانياً، فهي ذاتها التي تدفع القبيلة حين تستقر وتشرع في الدخول في مرحلة الحضارة إلى تحسين وسائل العيش، من خلال اتخاذ مقر ثابت لها، ثم تشييد المدن. وتأسيس الدولة سابق على تشييد المدن لأنه يحتاج إلى المال والأدوات والقوى العاملة الضخمة التي لا يمكن أن يسخرها إلا الملك.

عوامل قيام الحضارة:

يتوقف قيام الحضارة عند "ابن خلدون" على العوامل التالية:

أ- مزايا الأرض: الأرض مصدر الإنتاج، وأن المزارعين المنتشرين في الأرض السهلية والجبلية هم أهم قسم من أقسام الشعوب في الإنتاج، ويأتي بعدهم البدو الرحل ثم سكان المدن. ويعد "ابن خلدون" العمل أساس الإنتاج والإنتاج أساس الحضارة، فإن العمل في الأرض وزراعتها وما يرتبط بها من صناعات يستتبع الاستقرار بعد ترحال. وقد كان الإنسان في مرحلة البداوة ينتقل من مكان إلى مكان، فلما اتجه هذا الإنسان إلى استثمار الأرض فقد اتجه إلى الاستقرار، والاستقرار أول أسس التحضر. كما رأى "ابن خلدون" أن البيئة الطبيعية تؤثر بقوة في المجتمع الإنساني، إذ أن هذا الأخير تحدد طبيعته إلى حد كبير الأرض، وموقعها ودرجة خصوبتها ونوع المواد الغذائية التي تنتجها والمواد الخام التي تقدمها ومناخها، فالطبيعة تحدد النشاط الإنساني وتضع حدوداً لما يمكن أن يفعله.

ب- مزايا الحكومة: يعد "ابن خلدون" الحكومة أساساً آخر من أسس التحضر. ذلك أن الإنسان المستقر يحتاج إلى التنظيم والحماية حتى يطمئن على ثمار عمله فيزيد من إنتاجه، كما أنه يحتاج إلى حكومة عادلة تحقق الأمان والعدالة، وإلى حكومة قوية تستطيع الدفاع عن مصالحه، وإلى حكومة واعية بأهمية التجارة الخارجية فتشجعها وتحميها. فحكومة بهذه المواصفات تساعد على الاستقرار في الوطن وإلى تماسك المواطنين وإلى انصرافهم إلى الإنتاج، وبالتالي تصبح الدولة من الغنى ما يجعلها تسعى إلى تحديث وسائل إنتاج ومعيشة المواطنين، فتوصف بأنها دولة متحضرة انقلبت من طور البداوة إلى طور التحضر.

جـ- كثرة السكان: يرى "ابن خلدون" أن اجتماع عدد من السكان وتنسيق جهودهم وتوزيع العمل بينهم يجعل ثمرة جهودهم تفوق حاجاتهم، فلا يستهلكون إلا جزءاً يسيراً، ويزيد الباقي عن حاجاتهم يستثمرونه في الترف ومظاهر التحضر.

والترف يزيد الدولة في أولها قوة إلى قوتها، وذلك أنه إذا حصل الملك والترف كثر التناسل فتقوى العصبية.

ومن مظاهر تحضر الدولة الاستكثار من الموالي والصنائع، إذ إنهم من لوازم الترف، كما يستظهر بهم صاحب الأمر ويدفع عنه مخالفيه. وتعبر الدولة عن قوتها وتحضرها بالآثار، وعلى قدر قوتها تكون قوة آثارها، فمباني الدولة وهياكلها العظيمة إنما تكون على نسبة قوتها لأن ذلك لا يكون إلا بكثرة الفَعَلَة واجتماع الأيدي للعمل.

ثالثا: طور التدهور:

الطور الثالث من أطوار الدول والحضارات، هو طور التدهور، أي وصول الدول والحضارات إلى الهرم. ويتحقق التدهور عندما تتوفر العوامل الآتية:

١- العصبية:

كما كانت العصبية عاملا حاسما من عوامل القوة والنفوذ وفرض سلطان القبيلة على سائر البطون، وكما كانت عاملا مهما في تسريع عملية الانتقال بالمجتمع من طور البداوة نحو طور التحضر، فإن عامل "العصبية" ذاته يمكن أن يكون سبباً في انهيار الدولة. فبالعصبية تتم الرياسة والمُلك، ونظراً لرسوخ خلق الكبر والأنفة في طبيعة البشر، فإن صاحب الرياسة سوف يطلب الانفراد بالمجد، وبالتالي سوف يأنف من مساهمة ومشاركة أهل عصبيته في أمور الدولة، فيعمد إلى القضاء عليهم ويجدع أنوفهم لما يقتضيه خلق التأله المتجذر في النفس الإنسانية، فلا يترك لأحد منهم في الأمر لا ناقة ولا جمل. وهنا يبدو جليا أن عامل العصبية كان دعامة رئيسية في إقامة المُلك، حين كان صاحب الأمر يستعين بالأقارب لمدافعة الأجانب، أما حين ترسخ المُلك وانفرد به صاحب الأمر فإنه سوف يدافع الأقارب مستعيناً بالأباعد، ويستظهر على أهل عصبيته بالموالي والمصطنعين.

٢- الموالي والصنائع:

يمكن أن يتحول الموالي والصنائع إلى عوامل هدم تفت في عضد الدولة وتسرع من خرابها، بعد أن كانوا من الدوال الواضحة على تحضر الدولة وازدهارها، فبعد أن أصبح كسر صاحب الأمر لشوكة أهل عصبيته وجدع أنوفهم وإبعادهم عن كرسيه ضرورة للانفراد بالمُلك، أصبح مضطراً في سبيل مدافعتهم عن الأمر إلى أولياء آخرين من غير جلدتهم يستظهر بهم عليهم ويتولاهم دونهم، فيكونون أقرب إليه، فيستميتون دونه في مدافعة قومه عن الأمر، فيستخلصهم صاحب الدولة، ويخصهم بمزيد من التكرمة والإيثار ويقلدهم جليل الأعمال والولايات.

ولما لم يكن الموالي والصنائع يحوزون من الشكيمة ما كانت تحوزه عشيرته التي بها أسس ملكه، وإنه إذا ذهب الأصل وهم عشيرته لم يستقل الفرع من الصنائع والموالي بالرسوخ، فيصير ذلك وهناً في الدولة لفساد العصبية بذهاب البأس من أهلها فضلا عن انعدام صلة الرحم بينهم وبينه، ويمكن أن يتجاسر أهل بطانته عليه فتتزعزع ثقته فيهم ويتتبعهم بالقتل ويستعين عليهم بالجيش ويستأجره لحمايته، فتقل بذلك الحامية بالأطراف والثغور مما يغري الخوارج عليها سواء من أعدائه أو من أهل عشيرته الذين أثار عدائهم جال انفراده بالملك.

٣- الترف:

يفسر "ابن خلدون" دور الترف في تدهور الدولة من خلال العوامل الاقتصادية والأخلاقية والنفسية على النحو التالي:

العامل الاقتصادي:

يلعب الترف دورا رئيسيا في عملية دفع الدولة نحو الهاوية، وذلك لتأثيره المباشر على اقتصاد الدولة، من خلال إنهاكه له، بسبب الحاجة الملحة التي تدفع بصاحب الأمر إلى الضغط على خزينة الدولة لكي يغطي نفقات الانغماس في الترف التي انتقلت عدواها إلى أفراد المجتمع. فيعمد السلطان إلى فرض المزيد من الجبايات على الناس، وقد يستحدث أنواعاً جديدة من الضرائب، حتى تثقل المغارم على الرعايا وتكسد الأسواق، ويقل بذلك انصراف الناس عن الإعمار. ومما يزيد الأمر سوءا هو تجاسر الجند وحاشية الحاكم على الدولة فيضطر الحاكم لمداراتهم بكثرة العطايا، وإذ لا تكفي المكوس بذلك فقد تسول للسلطان نفسه إلى جمع المال من أملاك الرعايا من تجارة ونقد بشبهة أو بغير شبهة، وقد يلجأ إلى مشاركة الفلاحين والتجار ولا يجرؤ أحد على منافسته فيبيعونه بضاعتهم بثمن بخس الأمر الذي يؤدي إلى كساد الأسواق وقعود الفلاحين والتجار عن العمل، أو هروبهم إلى خارج الدولة.

العامل الأخلاقي النفسي:

يوضح "ابن خلدون" أن عوائد الترف تؤدي إلى العكوف على الشهوات وتثير مذمومات الخلق، فتذهب عن أهل التحضر طباع الحشمة ويقذعون في أقوال الفحشاء فضلاً عن أن الترف يذهب خشونة أهل البداوة ويضعف العصبية والبسالة، وبذلك يصبحون عالة على الدولة كأنهم من جملة النسوان والولدان المحتاجين إلى المدافعة عنهم.